

الكتابة النسائية: عتق أم أبق؟

قراءة في نماذج من «نسيان COM» لأحلام مستغانمي

خيرة بن علوة

أستاذ مساعد، جامعة الجيلالي بونعامة، خميس مليانة، الجزائر

khaira_ben@yahoo.fr

k.benalloua@univ-dbkm.dz

ملخص

كثيراً ما يتردد هاجس الذكورة في صراعه مع الأنوثة في ثيمات الأدب النسوي الغربي والعربي على السواء؛ إذ يتصدر كتابات المرأة المثقفة التي تتخبط بين ما يفرضه المجتمع الذكوري من قيود تستدعي التحفظ ترفضها هي ومثيلاتها في الساحة الفكرية، وبين ما تأمله من صفات «الرجل المثال» الذي تراه أكثرهنّ رجلاً من ورق لا ذكراً أخرق؛ مما صعب مهمة توصيف هذا الرجل النموذج، وأنتج في المقابل فئة نسوية أدخلت لدى بعض النقاد في قفص العنوسة.

في هذا المضمار تحديداً تتوزع مضامين «نسيان COM» لأحلام مستغانمي، التي سنحاول من خلال هذه الورقات البحثية استجلاء مظاهر الهروب من طغيان الذكورة، والتحرر من سجن الأنوثة التابعة، بناءً على تصوّرات الجنس الخشن، وفق هذه التساؤلات: هل الكتابة النسائية تحرير للذات؟ أو كبت للذات؟ هل الحل في العتق أو في الأبق من وجهة نظر الكتابة النسائية؟ أفي العتق متنفس؟ وفي الأبق بديل؟ وما مدى انعكاس المظهرين في مؤلف أحلام مستغانمي «نسيان COM»؟

الكلمات المفتاحية: أدب، كتابة، نسائية، أنوثة، ذكورة، صراع، لغة، أبق (هروب)، عتق (تحرّر)

للاقتباس: بن علوة خ، «الكتابة النسائية: عتق أم أبق؟ قراءة في نماذج من «نسيان COM» لأحلام مستغانمي»، مجلة أنساق، المجلد 3، العدد 1 و2، 2018-2019

© 2019، بن علوة، الجهة المرخص لها: دار نشر جامعة قطر. تم نشر هذه المقالة البحثية بواسطة الوصول الحر ووفقاً لشروط Creative Commons Attribution license CC BY 4.0. هذه الرخصة تتيح حرية إعادة التوزيع، التعديل، التغيير، والاشتقاق من العمل، سواء أكان ذلك لأغراض تجارية أو غير تجارية، طالما ينسب العمل الأصلي للمؤلفين.

Women's writing: Question about self-liberation and escaping

Reading in Forms from "Forgetting Com" by Ahlem Mostaganmy

Khayra Bin Olwa

Assistant Professor, Université Djilali Bounaama, Khemis Miliana, Algeria

khaira_ben@yahoo.fr

k.benalloua@univ-dbk.m.dz

Abstract

The conflict between masculinity and femininity is often expressed in the Western and Arabic feminist literature. Educated women's writings clash with the restrictions imposed by patriarchal societies that call for reservation and that are rejected by women and their counterparts in the intellectual arena, and with the "Typical man", whom most of women consider rare. This subject has produced a feminist category that critics have included in the spinsterhood list. In this context, the contents of "Forgetting com" written by Ahlem Mostaganmy are studied.

Through this paper, we will try to throw some light on the phenomena of escaping from the dominance of masculinity and the liberation from the weakness of femininity, based on the premonitions of men, as per these questions: Is women's writing self-editing or repressed? Does the solution lie in self-liberation or escapism? What do women think about self-liberation? Do they find in the escape as an alternative? How much are these appearances reflected in the book "Forgetting Com" by Ahlem Mostaganmy?

Keywords: Literature, Writing, Women, Femininity, Masculinity, Conflict, Language, Escaping, Self-liberation

للاقتباس: بن علوة خ.، «الكتابة النسائية: عتق أم أبق؟ قراءة في نماذج من «نسيان com» لأحلام مستغانمي»، مجلة أنساق، المجلد 3، العدد 1 و2، 2018-2019

© 2019، بن علوة، الجهة المرخص لها: دار نشر جامعة قطر. تم نشر هذه المقالة البحثية بواسطة الوصول الحر ووفقاً لشرط Creative Commons Attribution license CC BY 4.0. هذه الرخصة تتيح حرية إعادة التوزيع، التعديل، التغيير، والاشتقاق من العمل، سواء أكان ذلك لأغراض تجارية أو غير تجارية، طالما ينسب العمل الأصلي للمؤلفين.

مقدمة

لعل ما يستفز الدارسين حين يتعلق الأمر بموضوع كهذا، المنحى الذي صارت الكتابة النسائية تسير وفقه لترسم صورة خائبة لرجل لم يتوسم صفة الرجولة في شخصه، فاستحال نموذجاً سلبياً لجميع الرجال؛ أو لتصور امرأة أثقلتها التجارب مع الطرف الآخر بحمل من الهموم والأحقاد.

ولعل أكثر ما يستفز المرأة المثقفة حين تكتب، ذلك الاستحواذ الذكوري على القلم والفكرة والأمر والنهي والرأي؛ حين يُنصب الرجل نفسه العدل والحكم في محراب الكتابة الإبداعية والنقدية على السواء، فتصبح هذه الأخيرة «وسيلة أخرى يقوم الرجل من خلالها بتحويل العالم إلى موضوع واختزاله بما يتوافق مع شروطه الخاصة، ويتحدث في مكان كل شيء وكل شخص آخر - بما في ذلك النساء»¹.

يعدّ هذا الموقف الظالم الدافع الأساس لكثير من كتابات النساء الإبداعية التي آلت على نفسها أن تكون رسول المرأة المهضوم حقها، ورسالة للطرف الآخر، تحاول أن تقف بموازاته لتتحدها لغة وفكراً وحضوراً؛ إذ نجد معظم الكتابات تنصبّ على فضح الأسرار والحيل الذكورية التي يتوسل إليها الرجل للإيقاع بالمرأة (الوديعة) في فخّ التبعية، والتعلّق الأعمى بسجن الحبّ، وتسعى في المقابل إلى توعية المرأة الواقعة في هذا الفخّ، أو تلك التي توشك أن تقع فيه بجملة من التوصيات والتوجيهات التي مرت بها الكاتبة، أو اكتسبتها من تجارب الأخرى.

في هذا الموقع تحديداً نجد الروائية والكاتبة أحلام مستغانمي تشتغل في معظم كتاباتها بالصراع الدائر بين الذكورة والأنوثة، انطلاقاً من واقع الضحايا من النساء (الغيبات) كما تسميها في كتابها «نسيان COM»، واعتماداً على خبرتها الكبيرة بنعرات الذكورة وثغراتها معاً، لتخطّ ما يشبه «الوصايا العشر» لنساء يبحثن عن المخلص والدليل؛ إذ تصرّح الكاتبة في كتابها في حديثها عن هؤلاء النساء قائلة: «من لهنّ سواي محرّراً ومحرّصاً!»².

وستنتج هاهنا مضمون الكتاب لتتفحص فيه طبيعة الوصايا المبتوثة في ثنياه، وطريقة الكاتبة

1- مجموعة مؤلفين، «النقد الأدبي النسوي»، سلسلة ترجمات نسوية، ترجمة هالة كمال، ط 1، ع 5، مؤسسة المرأة والذاكرة، دار الكتب المصرية، (2015)، ص 220.

2- أحلام مستغانمي، نسيان com (ط 3، بيروت: نوفل للطبع، هاشيت أنطوان للنشر، 2014)، ص 40.

في طرحها، فضلاً عن مدى صداها في الأوساط النسوية، والحال أنها بمثابة الهبة الثمينة التي لا تُعطى مجاناً؛ ولكن الكاتبة سخية بما يكفي لتصنع جيلاً حديدياً من النساء اللواتي سوف يخرقن القاعدة المطّردة، ويصدمن الواقع والثقافة والآخر. كل ذلك حين يستفدن من «أخطائي وأخطاء النساء من حولي... التي تراكمت... وشكلت مخزون السذاجة الأنثوية، عن أسباب تطابق الخييات النسائية، وتشابه النماذج الرجالية»³ كما تقول الكاتبة.

ذكورة مؤنثة أم أنوثة مذكرة؟

إذا كان بعض النقاد يرى أن «الكتابة النسوية بصوت الرجل تسمى «الاسترجال»⁴ فحريّ بنا أن نفكر كيف نسمي الكتابة بفكر الرجل؟ ذلك أن المتأمل لكتاب أحلام مستغانمي «نسيان COM» يكتشف في كذا موضع بصمة التفكير الذي ينفرد به الرجل، ويختلف به عن المرأة؛ فمعظم الأفكار المبتوثة في الكتاب تنم عن إرادة الكاتبة جعل المرأة أكثر شراسة من الرجل، وأكثر حدّة منه في التعامل معه، لتصبح مثله في المعاملة والجزاء أو أكثر. هذا الأمر يترجمه الشاعر العريض على خلفية الكتاب: «أحبيه كما لم تحب امرأة.. وانسيه كما ينسى الرجال».

إنّ تحليلاً دقيقاً لهذا الشعر يجعلنا نقف على هوامش خطيرة ومقصودة وفي الوقت نفسه متناقضة من خلاله؛ فهو يجمع بين حبّ شديد وكره شديد؛ فكيف لامرأة أن تجمع بين نقيضين؟! وكيف تستطيع الواحدة منا أن تكون امرأة في قمة الأنوثة، وتكون في المقابل ذكراً في قمة الرجولة؟! لا نستطيع التوفيق بين طرفي هذه المعادلة واقعاً ومنطقاً وحقيقة؛ لذلك فقد كان الأولى أن تعطف الكاتبة الجملة الثانية على سابقتها بحرف العطف «أو» بدل الواو، فيما أن تحب جداً أو تكره بشدة.

يبدو أن أحلام مستغانمي تريد أن تمسك العصا من الوسط؛ فتكون بالفكر رجلاً وبالقلم امرأة. وعلى الرغم من أنها تحظر هذا الكتاب عن الرجال بيعاً وقراءة، فإننا نقرأ من وراء هذا الأمر دعوة مستترة لهم لاقتنائه والتعرف إلى ما تكيده لهم الكاتبة، وما تملكه من أسرار الذكورة المتعالية ومفاتيحها، في مقابل الوصفات (السحرية) التي تسلّح بها المرأة قليلة الخبرة في هذا المجال، فيتحصّنوا أمامها أو يجمعوا على تغيير خطة اللعب على المشاعر والآمال.

3- المرجع نفسه، ص 36.

4- إبراهيم أحمد ملحم، الأنثوية في الأدب: النظرية والتطبيق (ط 1، إربد: عالم الكتب الحديث، 2016)، ص 21.

إنها تعلن حربًا خفيّة بين الجنسين، لتترك لهم ساحة الصراع وتترقب لمن تكون في النهاية الغلبة؛ ذلك أن كتابها في حقيقة الأمر لا يقوم على فكرة «النسيان» وحدها كما يُخيّل للقارئ من خلال العنوان والواجهة، إنما يقوم على ثلاثية أساسية تتحكم في فصول الكتاب وعناوينه الجزئية؛ إنها ثلاثية «العشق/الأبّاق/العتق»؛ وهي التي سوف نقف عندها من خلال نماذج تطبيقية من ثنايا الكتاب.

ففي الكتاب نصائح تدرج ضمن العنصر الأول من الثلاثية (العشق) تقرأ فيه كل ما أمكن الكاتبة من خبرة وبيع عن تجارب شخصية أو سماع، تترجم فيه الحد الذي تصل إليه امرأة في عشقها لرجل، وكيف يحدث أن تصل إليه فتعتلي درجات الحب لترقى إلى مرتبة «الهوس»، فيصبح الرجل شغلها الشاغل، ومثلها الكامل، في الصحو والسكرات. وتتكشف هذه الفكرة من خلال العناوين التالية ومضامينها في الكتاب: «كما لم تحب امرأة»⁵، «كاميليا التي تخاف أن تنسى»⁶، «ماذا هو فاعل الآن»⁷، «تحت رحمة المصلّ الهاتفي»⁸.

وفي الوقت الذي تريد الكاتبة من المرأة أن تكون في قمة الأنوثة حين تحب رجلاً، تنقلب على عقبيها في مسطورات أخرى من كتابها، لتنصّب ذاتها راهبًا في معبد الحبّ، وتبدأ في تلاوة النصائح التي تتلبّس بتفكير الرجل؛ فتطلب من المرأة أن تتحول إلى ذكر، لتدخل حينها في حيّز «الأنوثة المذكّرة» حين تعطيها «وصفات لنسيان الرجل»⁹ جرعاتٍ إيمانية لتتحدى الرجل بسلاحه الذي يشهره دائمًا في وجه أنثى عابرة لتاريخه المليء بالفخاخ؛ فبدلاً من أن تبقى تنتحب على حبيب غائب غادر، تتناول كبسولة نسيانه لتلتفت إلى الحياة من جديد: «أيتها الحمقاء.. الحياة تنتظرك وأنت تنتظرينه»¹⁰.

إن الكاتبة في هذا المقام تسعف المرأة بمدد للهروب من التعلق الأسر برجل لا يستحق التحية ولا التضحية؛ إنها ترى في هذه الحالة المرأة عبداً أبّقا من سيده المستبد، الذي مهما خدمه وكّرّس نفسه له، خذله. فحريّ بامرأة حالها هذه، أن تستفيق من زمن التغييب الذي حبست نفسها فيه لرجل لم يقدرها قدرها، وأدار ظهره لها.

5- مستغانمي، نسيان com. مرجع سابق، ص 77-88.

6- المرجع نفسه، ص 45-50.

7- المرجع نفسه، ص 91-93.

8- المرجع نفسه، ص 183-188.

9- المرجع نفسه، ص 111-135.

10- المرجع نفسه، ص 65-66.

فالهروب الذي تريده الكاتبة للمرأة، ليس هروبًا من رجل إلى رجل، إذ هي تحذرُها من هذا الفعل الذي سوف يقيها حبيسة دائرة مفرغة، تتخلص من وجع لتكتوي بآخر: «لا تطلبني اللجوء العاطفي إلى السرير»¹¹؛ «لا ترمي في أحضان أول منقذ»¹²؛ «من قصص النساء الغيبات»¹³. إنها تريد لها هروبًا إلى مجهول لم تحدده لها في الكتاب!

ثم إن الكاتبة ترتفع بالمرأة درجات أخرى، حين تدلّها على مرتبة (العتق) كدرجة أسمى لا تعلوها مرتبة، إذا وصلتها امرأة فقد بلغت السدرة وصارت مستقلة. فهي حينها ستستغني عن الآخر بعد أن تعثر على «وصفات لنسيان الرجل»¹⁴ وتطبق قاعدة: انسيه «كما ينسى الرجال»¹⁵ بطريقة تحث فيها المرأة على تذكر ماضيه الأسود تجاهها حين كان يتجاهلها ويهينها كما توصيها الكاتبة بقولها: «تذكرني ليلة الجدي»¹⁶، حين تضرب لها هذا المثل العربي الشهير لكيلا تحنّ أو تحزن يومًا على حبيب أذاقها أنواع العذاب النفسي والعاطفي. ولكن هل يمكن لهذه المعادلة أن تتحقق في حياة امرأة؟ إن مجرد التفكير في تطبيقها على أرض الواقع كفيلا بإثبات فشل هذه المحاولة اعتمادًا على طبيعة الأنثى؛ إذ كيف للدائرة أن تكتمل بنصف واحد؟!

لن تكون هذه الوصفات في النهاية حلًا ناجعًا للنساء في سبيل التحرر وتخطي هاجس الذكورة المستترة تحت رداء الرجولة عند الكثيرين؛ وربما لم تكن الكاتبة في هذا المؤلف تسعى إلى تحرير المرأة بقدر ما تنوي كشف حيثيات العلاقة التي تجمع بين ذكر وأنثى منذ القديم، وستبقى كما هي طبيعة قارة في نفس كل جنس. «ولعل التماهي مع لغة الآخر، دعا الروائية (أحلام مستغانمي) للسرد بلسان الرجل؛ لأن ذلك يوفر لها حرية البوح، ويشعر لها آفاقًا لا تتحقق لو كان السرد بلسان الأنثى، إنها تكتب لاستعادة صوتها، وممارسة حقها في اللغة»¹⁷.

تفرّد أم تمرد؟ بين اللغة والمخزون الثقافي

تتردد الآراء في الكتابة النسائية لغةً ومضمونًا، مما يجعل دراستها أكثر حذرًا ودقة؛ فبعد أن شاع عن اللغة التي نكتب بها أنها تحتكم إلى «الناموس الكوني الذي تكرر بسطوة

11- المرجع السابق، ص 61-64.

12- المرجع نفسه، ص 10-104.

13- المرجع نفسه، ص 223-240.

14- المرجع نفسه، ص 111-135.

15- المرجع نفسه، ص 137-157.

16- المرجع نفسه، ص 205.

17- عيسى برهومة، اللغة والجنس حفريات لغوية في الذكورة والأنوثة (ط 1، عبّان: الشروق للنشر والتوزيع، 2002)، ص 42.

الثقافة (و)أفضى إلى إنتاج لغة تماهت مع مسطورات المجتمع، فانحازت في أكثرها إلى الرجل، وصورته معياراً للإنسان عموماً، وصيّرت الأنثى فرعاً وانحرافاً»¹⁸ تزامت النقود حول ما إذا كانت لغة الكتابة النسائية نسخة طبق الأصل عن لغة الرجل، أم أنها لغة ذات بصمة متفردة تجعل قارئها يحكم بهويتها حين القراءة؟

والمشكلة التي أزمّت القضية هي أن «القلم مذكر (رجل) فلما التقطته المرأة فكأنها قد التقطت حية تسعى، هذه الآلة ثعبان والكتابة خطر وجنون»¹⁹. خاصة حين راحت تخوض مواضيع حساسة تحدش جدارها العازل الذي سلطه الرجل عليها باعتبارها أنثى! فكل ما يخوض فيه الرجل مباح، أما حين يتعلق الأمر بامرأة تكتب فإن الكتابة تغدو من منظور الرجل محرّمة عليها؛ «لذا سعت الحركات النسوية إلى تطهير اللغة من مظاهر التحيز، والتطلع إلى لغة محايدة»²⁰.

والمتابع لمعظم الكتابات التي تهتم المرأة لها وبها، يجدها واقعة في الثنائيات الضدية التي بدلاً من أن تجمع بينها وبين نصفها الثاني، راحت تصوّر الصراع المستमित الذي ولدته هذه الثنائيات؛ لذا «راح الفكر النسوي يروج لكتابة أنثوية تكون المرأة مركزها، فيتشكل العالم من منظورها، وذلك يقتضي اختيار لغة خاصة تعتمدها في تمثيل نفسها وعالمها. لكن لا يقصد بالهوية الأنثوية وبالكتابة الأنثوية، الاقتصار على ذات المرأة فقط، إنما زحزحة الهيمنة الذكورية المتغلغلة في الثنائيات المتضادة السائدة: الرجل/المرأة، العقل/العاطفة، القوة/الضعف...»²¹.

وفي سبيل الفصل العادل بين ما تنفرد به المرأة في كتاباتها وبين ما يشاركها فيه الرجل، كان لزاماً أن نشير إلى التفريق الحاصل في المصطلحات التي شتتت بعض النقاد والقراء حين إرادة الاهتمام إلى خصوصية هذا النوع من الكتابة؛ ومن بينها المصطلحان الأساسان: «الأنثوية» و«النسوية»؛ فهل الكتابة التابعة للمرأة تندرج ضمن المصطلح الأول أم الثاني؟

إن الأنثوية: «تتصل بالتعبير عن رؤية المرأة للحياة وما يجري فيها، وتصوير مشاعرها... بوصفها مكّماً للرجل، وبوصفه مكّماً لها، وقد يأتي ذلك على لسان المرأة أو الرجل المعبر

18- عبد الله الغدامي، المرأة واللغة (ط 2، بيروت: المركز الثقافي العربي، 1997)، ص 79.

19- المرجع نفسه، ص 130.

20- عيسى برهومة، اللغة والجنس حفرات لغوية في الذكورة والأنوثة (ط 1، عمان: الشروق للنشر والتوزيع، 2002)، ص 86.

21- عبد الله إبراهيم، السرد النسوي: الثقافة الأبوية، الهوية الأنثوية والجسد (ط 1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2011)، ص 101.

بلسانها»²². أما النسوية: «فتصل بالتعبير عن رؤى المرأة بوصفها عنصراً نقيضاً للذكورة، ما ترتب عليه من مطالبها بالتححرر، والتمرد على البنى المتحيزة للذكورة»²³.

نستنتج من خلال هذا التفريق الدقيق أن الأثوية حركة إيجابية تسعى إلى التوفيق لا إلى التفريق بين الجنسين، في حين تحاول النسوية أن تغلق على المرأة بوصفها ضدًا للرجل وندًا له، وتدفعها لمهاجمته، وإثارة إشكالية الفوقية الذكورية الممارسة في الساحة الاجتماعية والفكرية معًا، مما يهشم المرأة كشخص أولاً وكطرف مبدع ثانياً؛ هذا ما أدى ببعضهن إلى الخوض في مسألة التفرد لدى المرأة، و«تأكيدهن على وجود طبيعة أصلية للأنثى»²⁴، وهي «مسألة منطقية تمثل نقطة انطلاق لتفكيك اللغة، والفلسفة، والتحليل النفسي، والممارسات الاجتماعية، واتجاه الثقافة الأبوية (التي) نعيش فيها ونقاومها»²⁵.

وما دامت «اللغة... مادة كيميائية جاهزة للجنون»²⁶ فإن الأمر كله بيد من يملك زمامها، ويحدد اللعب على دوائها ومدلولاتها سواء كان رجلاً أم امرأة؛ فهذا هي ذي الكاتبة (أحلام مستغانمي) تثبت في كل كتابة لها التفوق في اختيار اللغة التي تسلب اللب، وتقنع العقل والقلب بطريقة الومضات المختصرة التي تقرأ من ورائها الكثير من الأبعاد الثقافية، والمحاولات الفكرية «لتعديل المطلقات السائدة والأفكار المستكثة عن الذكورة والأنوثة»²⁷.

إنها تسعى أحياناً إلى التواري خلف معطيات سياسية أو اقتصادية لكيلا تقع في شراك التهمة المباشرة من طرف الرجل الناقد، كما تكتب في: «دعيه يجرب»²⁸، كما أنها تتحايل في كثير من المواضيع حين يتعلق الأمر بمواضيع حساسة هي على دراية تامة بمدى أثرها على الرجل، فتلجأ إلى التلميح من طريق التمثيل المقرب حتى تصل الفكرة إلى المرأة بسلام؛ إذ تختار أن تنحو منحى «كليلة ودمنة» كما ترجمها (ابن المقفع)، فتضرب الأمثال بالحيوان لترسخ في نفس تلك المعذبة معاني الغدر والخداع والندالة التي تتلطف بها الذكورة المقنعة.

ويمكن القول إن الكاتبة (أحلام) من الذكاء ما يجعلها سيدة على اللغة، حين تستخدمها لتخدم مآربها، ويلين لها الحديث بها؛ لتكون الكاتبة التي استطاعت أن تفرق بين معطيات

22- ملحم، الأثوية في الأدب: النظرية والتطبيق. مرجع سابق، ص 21.

23- المرجع نفسه، ص 21.

24- مجموعة مؤلفين، النقد الأدبي النسوي. مرجع سابق، ص 219.

25- المرجع نفسه، ص 219.

26- الغدامي، المرأة واللغة. مرجع سابق، ص 138.

27- برهومة، اللغة والجنس. مرجع سابق، ص 71.

28- مستغانمي، نسيان.com. مرجع سابق، ص 99-100.

الذكورة والرجولة التي تخطئ في التمييز بينهما الأنثى، فتخلط بينهما وتحسب كل ذكر رجلاً لتقع في الخطيئة والخطأ؛ لذلك تنبه أحلام قارئاتها إلى أن كتابها ليس ضد النصف الثاني عموماً، وإنما هو «جردة نسائية ضد الذكورة، دفاعاً عن الرجولة»²⁹ التي كادت أن تنعدم في وقتنا.

تحرير للذات أم كبت للذات؟

إن الخوض في مسألة اللغة في الكتابات النسائية يثري الدراسات الجمالية ويختص بها تحديداً، في حين تثير مسألة المضمون فيها مجموعة من الإشكالات في الساحة الفكرية؛ ذلك أن ما تدور حوله مختلف مختلف هذه الكتابات مستفز وجريء في كثير من الأحيان. وإن ندرى أتستطيع المرأة التي تتبّع وصايا (مستغانمي) في كتابها هذا الخروج من ربة الأنوثة المستضعفة، لتتحول إلى امرأة حديدية تتغلب على احتياجاتها العاطفية والجسدية، وتعيش حياتها بطريقة عادية!

ف «هل كتابة المرأة إفصاح عن (الأنوثة).. أم أنها هروب عن (الأنوثة) وتسام عن صفة الأنثى في المرأة وترفع عن الجسد المؤنث، وبالتالي فالكتابة مفارقة للأنوثة وليست تعبيراً عنها...!»³⁰ في ضوء ذلك تصبح المرأة الكاتبة ومن يسير على نهجها امرأة جوفاء، بجسد أنثوي وتفكير ذكوري من حيث لا تدري؛ ففقد صبغتها وتضيع بين البوح والفضح.

و«هل المرأة تفرض أنوثتها لتلبس بذكورية القلم... لذا فإن النموذج المحتذى هو نموذج ذكوري، بينما لا يحمل نموذج الأنثى سوى صورة الجاهلة والامية!»³¹ ومن ثمّ فهي ما تزال تعيش هاجس التبعية للرجل، وتترسّم ما يفرضه وما يرفضه شبراً بشبر وذراعاً بذراع؛ كل ذلك في سبيل تغطية النقص الذي ألصقه بشخصها وجنسها هذا المجتمع الذكوري، فتلجأ للكتابة كمهرب، لا كرسالة للتحسيس، ووسيلة للتفيس.

إنّ مطلب التحرر والعتق - الذي هو أسمى من الهروب والأبق - مطلبٌ ليس بالهين؛ فإذا فشلت المرأة في إيجاد بديل حين الهروب، فكيف بها حين التحرر؟! ربما تلجأ إحداهنّ إلى تغيير نظرتها إلى الرجل عندما تجمعها به علاقة لتتوهّم أنها هاربة أو متحررة؛ «ذلك أن المرأة العربية، مثل الشعوب العربية، تربّت على الحاكم الأب، والقائد الأب... فنحن نبحث عن حبيب أباء.. لنكون له أمّاً!»³².

29- المرجع السابق، (خلفية الكتاب).

30- الغدامي، المرأة واللغة. مرجع سابق، ص 158.

31- المرجع نفسه، ص 159.

32- مستغانمي، نسيان.com. مرجع سابق، ص 99-100.

تصبح العلاقة التي ينبغي أن تكون بين رجل وامرأة علاقة مضطربة انطلاقاً من هذا المنظور؛ فبالرغم من أننا نؤمن بالمقولة الشهيرة: «كل فتاة بأبيها معجبة»، إلا أنه حين يتعلّق الأمر بحبيب للمرأة لا أب، يتوجّب عليها أن تأخذ بعين الاعتبار طبيعة الطرف الآخر الذي تتعامل معه. صحيح أن المرأة تأمل من الحبيب احتواءً وحناناً ومواقف بطولية كتلك التي عاشتها مع أبيها، ولكنها تنسى أن هذا الرجل هو الآخر يبحث عن شبيهة لأمّه التي تربّى في حضنها، وتشرب تدليلها وإغداقها.

كما أنّ المرأة تنسى أن هذا الرجل ذاته الذي يريد من المرأة أحياناً أن تتمثل صورة أمّه في خدمته وتدليله، قد تتغير طلباته وتطغى متطلباته فتحملها فوق طاقتها، وهي التي تسعى حثيثاً إلى أن ترقى رقيّ أمّه أو تعلوها مرتبة في قلبه، فتحظى به وتسلب لبه. إن الرجل الذي ترتفع في تكوينه الجيني نسبة الذكورة لتشغل حيز الرجولة هو ذو طبع ملول، ومراس صعب يجعل المرأة التي تطلبه أو يطلبها لحين، من المهلكين.

من هذا المنطلق تحديداً، تقف الكاتبة في كذا موضع من وصاياها في الكتاب موقف المحرّض، الذي يحاول انتشال ما تبقى من بقايا أنثى أهلها الطلاب؛ فنجدها تصوّر الرجل الذي يمارس عليها بذكورته أشد أنواع العذاب تصويراً بشعاً متنوع الصفات، في أسلوب غير مباشر يخفي وراءه ما يتميز به الرجل الذي هذه حاله من خبث طويّة، وسوء نيّة.

إنه «برغوث»³³ يهوى تتبع رائحة الإناث والرعي في حقولهنّ أيّا كانت طبيعتهنّ، و«أفعى»³⁴ تتسلل إلى ذاكرة امرأة لتخيّل إليها عصا تتكئ عليها، فإذا بها ثعبان مفرع. بل «حيوان جريح»³⁵ حينما تخونه الذكورة مع امرأة حديدية تركته ينزف منتظراً أول ممرضة تسعفه في الطريق، أو هو «كالزواحف، يتخلص من جلده ومن ماضيه بدون عناء»³⁶. إنه بكل بساطة حرباء تتلون في كل موقف ومع كل امرأة بألوان وأوصاف الحيوانات من: «حصان، طاووس، ثعبان، دلفين، ثعلب، عقرب، كناري، كلب، قط، فيل، زرافة، أسد، أرنب، فأر، خنزير»³⁷ ليقضي مآربه.

33- المرجع السابق، ص 101.

34- المرجع نفسه، ص 103.

35- المرجع نفسه، ص 92.

36- المرجع نفسه، ص 51.

37- المرجع نفسه، ص 160.

لم يبق للمرأة بعد هذا التصوير الدقيق والبشع للرجل الذي يمارس سلطة الذكورة في حق أنثى قطوفها دانية عن حسن نيّة، إلا أن تتسلح بالحذر، وتختار بين أن تغامر مع كل رجل يجمعها به قدر، وتغامر بعاطفتها وجسدها وذاكرتها؛ وبين أن تزهد في الرجال جميعاً. صالحهم وطالحهم - مادامت تخشى على نفسها الانكسار، ولا تملك استراتيجية لتحصين الذات؛ عندها ستضطرّ إلى كبت اللذات، والقفز على السنّة الكونية التي قضت بأن النساء خلقت للرجال، ولهنّ خلق الرجال.

الكتابة النسائية بين الإنصاف والإجحاف

إنّ وقفة مليّة وفاحصة للكتابة النسائية -لغة ومضموناً- تقودنا إلى الخلفية التي تدفع المرأة؛ لتكون شرسة وعدوانية أحياناً كثيرة في طرحها للمواضيع الحساسة التي تخرق أفق توقع المجتمع الذكوري المتسلط؛ وبما أن النساء أكثر الفئات الاجتماعية تعرّضاً للتغييب، والظلم الذي يستمد توجهاته من الموروث، والأعراف والقيم الاجتماعية والدينية المضللة³⁸؛ فقد يشفع لها هذا الجانب في طريقتها التي تنتهجها وتهاجم من خلالها الطرف الذي زور التاريخ وطمس حقيقة الثقافة والدين اللذين يضمنان لها -في الأصل- كرامة مسلوقة³⁹.

ولأنّ الواقع يقضي بالتعامل مع «العلاقة بين المرأة والرجل على أساس من السيطرة والتبعية، فالرجل رأس المرأة... أما المرأة فينحصر دورها في الإشباع الجنسي»⁴⁰؛ فينبغي ألاّ نتعجّب حين نلفي معظم الكتابات النسائية تدور في هذا المضمار كثيراً. غير أن ما يمليه الخطاب النقدي يتصادم مع هذه الفكرة؛ فلماذا لا نلوم الرجل في نظرتنا الضيقة إلى المرأة، التي تجعل دورها مقزّماً ومُذلاً، ونلومها هي حين تسعى إلى إماطة اللثام عنها، ومحاولة إعادة الاعتبار لذاتها وصفاتها؟!

و«إذا كان يتعين على النساء أن يهدفن إلى صياغة خطابات بديلة. (وإن كان) في موقعهن الهامشي بعض البوادر التحريرية»⁴¹، فإن هذا المطلب في حد ذاته تطويق لحرية الكتابة، وتضييق للخناق على المرأة في سبيل عدم المساس بثوابت المجتمع الذكوري المفروضة. إن المرأة أكثر ما يستهويها مواضيعها الشخصية، والتي يكون الرجل غالباً طرفاً حاضراً بقوة فيها، وقليلاً ما نجدتها تخوض مواضيع عامة تزاحم الرجال فيها، وهاهنا ملمح للتفرّد في كتاباتها؛ وحتى إن

38- ينظر: صاحب الربيعي، المرأة والموروث في مجتمعات العيب (ط 1، دمشق: دار صفحات للدراسات والنشر، 2010)، ص 76.

39- ينظر: الغدامي، المرأة واللغة. مرجع سابق، ص 16.

40- المرجع نفسه، ص 76.

41- مجموعة مؤلفين. النقد الأدبي النسوي. مرجع سابق، ص 221.

هي خاضتها، فإنها سببت في ثناياها دون شك أفكاراً أنثوية.

من هذا المنطلق يرى بعض النقاد -ومن بينهم المغربي (محمد برادة)- أن للأدب النسائي خصوصية لا يمكن للرجل أن يتجرأ على محاكاتها، أو النسيج على منوالها؛ فهناك من الأمور المتعلقة بجنس الأنوثة -طبعاً وفكراً- ما لا يستطيع رجل أن يكتب عنه؛ لأنه لا يعيشه ببساطة، إنه يفتقر هاهنا للتجربة الشعورية. يقول في هذا المقام: «فأنا من هذه الزاوية لا أستطيع أن أكتب بدل المرأة، لا أستطيع أن أكتب عن أشياء لا أعيشها»⁴².

لكن اللافت للنظر في كتاب (أحلام مستغانمي) -محلّ التطبيق- أنه كتاب يجيّل لقارئه ازدواجية كاتبه! فإذا سلمنا أن عالم المرأة الخفي لا يمكن أن يقتحمه الرجل، فإن (أحلام) كامرأة استطاعت أن تقتحم عالم الرجل، لتثبت جدارة هذا الجنس المستضعف والمظلوم في الفكر والفراسة معاً. ذلك أننا حين نتصفح كثيراً من وصاياها التي تصبّ في نسيان الأنثى للذكر الغادر، نجدها تأتي على الأخضر واليابس في كشف الحيل، وإخراج الخبيء والدفين من أفكار الذكر، التي يحرص على ألا يعرفها أحد لكي تبقى صلاحيتها نافذة في حقّ الضحايا من الإناث الغيبّات.

إن «الصمت»⁴³ والاختفاء المفاجئ»⁴⁴ و«عدم الاعتذار»⁴⁵ من أقوى الأسلحة التي يهاجم بوساطتها الرجل امرأة مقصودة، وقد استطاعت (أحلام) بخبرتها وعبرها أن تكشفها على الورق، لتكون في متناول أكبر قدر من الإناث قليلات الحظّ والذكاء. إنها أنثى حتى الثمالة حين تقدم نصائح لحبّ رجل كما لم تجبه امرأة، وذكرٌ حتى النخاع حين تعرض تلك الحيل وتفصلها تفصيلاً حتى لكأنها تعيشها حقاً! فالمرأة حين تكتب في العلاقة بين الرجل والمرأة توفّق إلى حد بعيد، والرجل إذا عبّر فإنه سيقصر على ما يعيشه كذكر، ويعجز عن تصوير عالم الطرف الآخر.

تصبح كتابة المرأة اعتماداً على ما سبق أدباً متميزاً ومتبحراً «يمكن تحميله الكثير من المعاني والحمولات التي تشدّ من عزم المرأة»⁴⁶ وفي الوقت نفسه تبعث المجتمع الذكوري -بل

42- محمد برادة، «هل هناك لغة نسائية؟»، مجلة آفاق، ع 12، (أكتوبر 1983)، ص 135.

43- مستغانمي، نسيان COM، مرجع سابق، ص 139-142.

44- المرجع نفسه، ص 147-148.

45- المرجع نفسه، ص 151-152.

46- محمد معتصم، المرأة والسرد (ط 1، الدار البيضاء: مؤسسة دار الثقافة للنشر والتوزيع، 2004)، ص 7.

وتلزمه- أن يقدرها حق قدرها، ويعترف بها منافسًا قويًا كمطارحةٍ للفكر والأدب لا الفراش. وعبثًا إن حاول بعضهم الطعن في جدارة المرأة ومكانتها التي أصبحت تخيف الرجل، وتزعزع سلطانه وسلطته، من خلال التشديد على نقد كتاباتها من زاوية المضمون سواء أكان جريئًا أو خادشًا للحياء أو مستفزًا للموروث المغلوط المفروض؛ فهي محاولة يائسة في سبيل تغطية محاسن هذا الأدب بحجة «قلّة الأدب»!

ينبغي إذاً «تشكيل هويّة مختلفة عن الهويّة الذكورية بناء على الأدوار والوظائف الاجتماعية، لا بقصد التمايز لكن بهدف التمييز»⁴⁷ فللمرأة اهتماماتها وكذلك للرجل، ولا يمكننا أن نعكف في نقودنا على محاولة إثبات من الأجدد؟ ومن الأفضل؟ بقدر ما يهمننا استجلاء ملامح الخصوصية في كلّ كتابة، من خلال ما تتميز به كتابة المرأة وما تختص به كتابة الرجل، من قبيل الإثراء لا التجريح والقده.

وعودًا على ما سبق طرحه من إشكالية نسبة الأدب الذي يخص قضايا المرأة؟ أهو أدب المرأة أم الرجل؟ يبيّنا إلى الاستثناس بفكرة عبثية هذا الطرح لتشعباته بدءًا من الإشكالية ووصولًا إلى مسألة النسبة والهوية؛ فالأجدد بنا إذاً التسليم بأن «وظيفة الناقد تكمن في اكتشاف الجانب الأنثوي في النص الروائي، وليس تصنيف الأدب»⁴⁸ في سبيل دراسة موضوعيّة تحاول استجلاء المضامين التي تهّم المرأة عمومًا، سواء أكانت هي الكاتبة أم الرجل، فضلًا عن تتبع مواطن الجماليات في اللغة الموظفة وعلاقتها بالمضمون سلبيًا أو إيجابيًا، كل ذلك بعيدًا عن الخلفيات الاجتماعية الموروثة والأحكام السلطوية المسبقة.

خاتمة

لا يمكن في النهاية إسدال الستار على أدب فرض نفسه بقوة الفكر واللغة كالأدب النسائي؛ وهو إن كان يمثل لبعض النقاد معضلة وإشكالية تحتاج إلى الكثير من الدقة وإعمال النظر في تناول والتوجيه، خاصّة عندما يتعلق الأمر بالنقد الرجالي الذي غالبًا ما يدرجه في قفص الاتهام بدافع الخلفية الموروثة حينًا، وحسدًا من عند أنفسهم حينًا آخر، والحال أن المرأة صارت تثبت حضورًا أدبيًا قيّمًا، ومكتفًا، يراه الرجل خطرًا على حضوره، وإيدانًا ربما بزواله.

47- عبد الله إبراهيم، موسوعة السرد العربي (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2008)، ص 248.

48- ملحم، الأنثوية في الأدب. مرجع سابق، ص 23.

لكنّ هذه النظرة الضيّقة لدى بعضهم ليست غالبية، فهناك من أنصف الكتابة النسائية من باب التفرد بالخصوصية التي يعجز الرجل عن بلوغها أو كشفها، ناهيك عن مستوى لغتها الذي ينبئ عن ثقافة عالية، ومعجم كثيف، تحسن المرأة توظيفه في كتاباتها المباشرة والرامية على السواء.

وعلى ما يبدو من خلال ما وقفنا عنده -أعلاه- من نماذج محلّلة ضمن كتاب «نسيان com» ل(أحلام مستغانمي) يتبيّن لنا الموضوع الحساس الذي تجرّأت الكاتبة على طرحه وطرحه طرحاً صريحاً، وأحياناً جارحاً للطرف الآخر، الذي يرتدي عباءة الرجولة، ليتستّر على ذكورة ننته؛ فالكاتبة في هذا الكتاب بمثابة بائعة دواء للمكروبين من الحبّ، وتحديدًا النساء.

لكنّ ما يحسب لها رغم الجرأة والتجريح، لغتها الراقية، وثقافتها المتبحرة التي تغرف من كل نبع، وتتشرب الماضي والحاضر بكل قصصه وعبره، لتمحو عَبرات إناث أذهن ذكور عابرو سريّر أجهضوا أجسادهن وعواطفهن.

ومع كل ذلك، تبقى مسألة الأنوثة في علاقتها بالذكورة مشكلة تؤرق المرأة والكاتبات سواءً بسواء، ولا يمكن -في نظرنا- لأي أنثى مهما كانت أن تستعير أسلحة الرجل لتهاجمه بها لأنها بكل بساطة لا تملك شفراتها. فمن السهل لامرأة أن تقع في شرك العشق، ولكنه من الصعب جدًّا أن تعالج نفسها بعد الانكسار بدواءٍ: العتق أو الأبق، لأنها ستجدها في نهاية المطاف تفرّ من الرجل إليه!

المراجع

- إبراهيم، عبد الله. السرد النسوي: الثقافة الأبوية، الهوية، الأنثوية والجسد. ط 1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2011.
- إبراهيم، عبد الله. موسوعة السرد العربي. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2008.
- برادة، محمد. «هل هناك لغة نسائية؟»، مجلة آفاق، مج 2، ع 12، المغرب، (أكتوبر 1983).
- برهومة، عيسى. اللغة والجنس حفريات لغوية في الذكورة والأنوثة. ط 1، عمّان: الشروق للنشر والتوزيع، 2002.
- الربيعي، صاحب. المرأة والموروث في مجتمعات العيب. ط 1، دمشق: دار صفحات للدراسات والنشر، 2010.

- الغدامي، عبد الله. المرأة واللغة. ط 2، بيروت: المركز الثقافي العربي، 1997.
- مجموعة مؤلفين، «النقد الأدبي النسوي»، سلسلة ترجمات نسوية، ترجمة هالة كمال، ط 1، مؤسسة المرأة والذاكرة، دار الكتب المصرية، ع 5، (2015).
- مستغامي، أحلام. نسيان.com. ط 2، بيروت: نوفل للطبع، هاشيت أنطوان للنشر، 2014.
- معتصم، محمد. المرأة والسرد. الدار البيضاء: مؤسسة دار الثقافية للنشر والتوزيع، 2004.
- ملحم، إبراهيم أحمد. الأنثوية في الأدب: النظرية والتطبيق. ط 1، إربد: عالم الكتب الحديث، 2016.